

## توطئة

### أقول أولاً

من آلاء الله سبحانه وفضله عليّ أن يرى كتابي " الدمعة السّاقبة " طريقه إلى النّور، وأرجو أن يُسهم في إثراء المكتبة المذهبيّة الزّاخرة، وخصوصاً تلك الأرفف الحسينيّة المحبّبة إلى نفسي، فهو يعالج موضوع البكاء على الإمام الحسين عليه السلام وفلسفته وجذور المأتم الحسيني.

وقد قفاه هذا الكتاب " المصيبة الرّاتبة " الذي يندرج في نفس السّياق، إلاّ أنّه يُعالج حقلاً آخر من حقوله المونقة، بل هو توسّع في الفصل الأخير من الكتاب الأوّل، ويُعنى بالشّعائر الحسينيّة والطّقوس المرتبطة بمحادثة كربلاء، المعبرة عن أصداء المقتل الأليم وجوهر المصيبة الرّاتبة الثّابتة الدّائمة، قبل يوم الطّف وبعده، فهو توأم الكتاب الأوّل.

والحقّ أنّ الكتابين جزءان في كتاب واحد، إلاّ أنّني آثرت أثناء تبييض المسودّات تفريقهما، لأنّني لاحظت كبر حجم الكتاب إذا كانا معاً، علاوةً على كونهما موضوعين مستقلّين ويمكن فصلهما، وقد نزلت إلى رغبة بعض من لا أرى بداً من النزول إلى رغبتهم، مُستحضراً قول أمير المؤمنين عليه السلام: عرفتُ الله

بفسخ العزائم ونقض الهمم.

ويضمّ الكتاب الأول بحوث البكاء والمآتم الحسيني، في محاولة جادة لتوضيح التساؤلات وكشف المبهمات التي تلفّ ظاهرة البكاء والمآتم الحسيني، وقد أشرت في مقدّمته إلى داعي تصنيفه وصياغته، ومطالبه مُصاغةً أساساً لمحاورة أهل السنّة وإن كانت مفيدة مهمّة لغيرهم أيضاً، ومركز ثقله الفصل الرابع، حيث إثبات كون البكاء على سيّد الشهداء عليه السلام سنّة نبويّة مؤكّدة، ونهجنا فيه التّقل عن مصادر العامّة، مع استطراد بعض البحوث فيه.

أمّا هذا الكتاب - الذي بين يديك - فإنّه يُعالج مختلفَ البحوث المتّصلة بالشعائر والطقوس الحسينية، وفيه مقدّمة تتبّع دواعي الحزن على الإمام الحسين عليه السلام، وفيها تُنفّ من مطالب الكتاب الأوّل ممّا لا بدّ من تقديمه في موضوع الشعائر.

ويُعنى أصل الكتاب بالأصدقاء التي شكّلت أحزان واقعة الطّف، سواء كانت قبل الحادثة أم بعدها، إذ تُتابع فصوله الجذور المأساوية الممتدّة في سالف الزّمن، في عالمنا هذا وفي عالم الملكوت، وتسبر أغوار العهد القديم لتستعرض أصدقاء المصاب في عالم الحياة منذ وطأة الإنسان الأوّل على هذه الأرض وحتى رسالة النبيّ الخاتم عليه السلام، وقد ساعدت النصوص الواردة على إثراء تلك البحوث.

ثمّ يأتي الكلام في تتبّع أصدقاء الحزن المملّعة بالشّجى والأسى والجزع التي توالى بعد الحادث، ونسلط الأضواء على شعائر المعزيين وطقوسهم الحسينيّة لدراساتها بحسب التّقل والصّناعة الفقهيّة.

ولا أغالي إن قلت: إنّ مصاباً جلاًلًا يجيي الجليل شجاءه ويستجيب له عالم

التكوين طوعاً بحمرة السماء وبكائها وبتفجر الدماء من الصخور الجلاميد.. لحريّ أن يحتضنه الخواص في قلوبهم وينشرون أشجانه ببثّ الأحزان وإظهار غاية الجزع، وقد نصّت أخبارنا على أنّ أوّل من رثاه هو الجليل جلّ وعلا، وقد نعاه إلى الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، ثمّ توالى نزول الوحي على نبينا الكريم صلى الله عليه وآله لتأكيد خبر مقتل سبطه عليه السلام قبل ميلاده، حتّى إذا وُلد تزاحمت أفواج الملائكة إلى حضرته مهتأة ومعزية بولده، فعقد النبي صلى الله عليه وآله منذ ذلك الحين مآتم مختلفة وفي أماكن عدّة.

حتّى إذا وقعت الواقعة في سنة إحدى وستين على شطّ كربلاء وقتل سيّد شباب أهل الجنّة عليه السلام انفجر بركان الأحزان، واشتعلت جذوة اللوعة والمصاب، وارتفعت راية الشهادة الحسينية وراحت تُؤتي أكلها.

لقد زالت شمس يوم عاشوراء عن سبعة عشر صريع من أهل بيته عليهم السلام ليس لهم شبيه على الأرض، وعن نيّف وسبعين قتيل من أصحابه الأبرار عليهم السلام، وبقي بعدهم وحيداً فريداً لا ناصر له ولا معين، فعزم على لقاء الله تعالى بمهجته، حتّى خرّ صريعاً على بوغاء كربلاء كالأسد الجريح، وترادفت عليه الجموع لحزّ رأسه وسلبه، وقد كست الظلمة وجه النهار، وما أسرع أن أضاء الأفق بسنا رأس الإمام الحسين عليه السلام على رمح طويل.

يقول مولانا الإمام المنتظر عليه السلام :

"وأنت مقدّم في الهبوات، ومُحتَمِلٌ للأذيّات، قد عجبّت من صبرك ملائكة السّموات، فأحدقوا بك في كل الجهات، وأنخنوك بالجراح، وحالوا بينك وبين

الروح ، ولم يبق لك ناصرًا ، وأنت محتسبٌ صابرٌ، تَدُبُّ عن نسوتك وأولادك.  
حتى نكسوك عن جوادك، فهويت إلى الأرض جريحاً، تَطَوُّكَ الخيول  
بحوافرها، وتعلوك الطغاة ببواترها، قد رشح للموت جبينك، واختلفت  
بالانقباض والانبساط شمالك ويمينك، تدير طرفاً خفياً إلى رحلك وبيتك، وقد  
شُغلت بنفسك عن ولدك وأهلك، وأسرع فرسك شارداً، إلى خيامك قاصداً،  
محمماً باكياً..

فلما رأين النساء جوادك مخزياً، ونظرن سرجك عليه ملوياً، برزن من  
الحدود، ناشرات الشعور، على الحدود لاطمات، الوجوه سافرات، وبالعويل  
داعيات، وبعد العز مذلللات، وإلى مصرعك مبادرات، والشمر جالس على  
صدرك، مولعٌ سيفه على نحرك، قابض على شيتك بيده، ذابح لك بمهنده، قد  
سكنت حواسك، وخفيت أنفاسك، ورُفِعَ على القنا رأسك، وسُبي أهلك  
كالعبيد، وصُفِّدوا في الحديد، فوق أقتاب المطيات، تلفح وجوههم حر  
الهاجرات، يساقون في البراري والفلوات، أيديهم مغلولة إلى الأعناق، يُطاف  
بهم في الأسواق، فالويل للعصاة الفساق.

لقد قتلوا بقتلك الإسلام، وعطلوا الصلاة والصيام، ونقضوا السنن  
والأحكام، وهدموا قواعد الإيمان، وحرفوا آيات القرآن، وهمجوا في البغي  
والعدوان، لقد أصبح رسول الله ﷺ من أجلك موتوراً، وعاد كتاب الله عز  
وجل مهجوراً، وغودر الحق إذ قهرت مقهوراً، وفُقدت بفقدك التكبير والتهليل،  
والتحريم والتحليل، والتنزيل والتأويل، وظهر بعدك التغيير والتبديل، والإلحاد  
والتعطيل، والأهواء والأضاليل، والفتن والأباطيل.

فقام ناعيك عند قبر جدك الرسول ﷺ، فنعاك إليه بالدمع الهطول، قائلاً:  
 يا رسول الله، قُتل سبطك وفتاك، واستبيح أهلك وحماك، وسبيت بعدك  
 ذراريك، ووقع المحذور بعترتك وذويك، فانزعج الرسول، وبكى قلبه المهول،  
 وعزّاه بك الملائكة والأنبياء، وفُجعت بك أمك الزهراء، واختلفت جنود الملائكة  
 المقربين، تعزّي أباك أمير المؤمنين، وأقيمت لك المآتم في أعلى عليين، ولطمت  
 عليك الحور العين، وبكت السماء وسكانها، والجنان وخزّانها، والهضاب  
 وأقطارها، والبحار وحيثائها، ومكة وبنيانها، والجنان وولدانها، والبيت والمقام،  
 والمشعر الحرام، والحل والإحرام"<sup>(١)</sup>.

لقد هوت تلك المأساة الدامية على قلوب الآل الكرام عليهم السلام هوي الصّاعقة،  
 وكان وقعها شديداً جداً، وقد واجهوا لواهب جمرتها بتوازن غريب، وأسّسوا  
 لتخليدها شعائر خاصّة حتّوا شيعتهم على إحيائها، وسنّاتي على دراستها في هذا  
 الكتاب تفصيلاً.

وتلقّى الشيعة تلك التعاليم بالقبول، ونسجوا على منوال أئمتهم الأطهار  
 عليهم السلام، وحملوا تلك الأمانة الثقيلة، وفهموا درس الحزن والعزاء بكل ذكاء وأمانة،  
 ولقنوه صغارهم وتوارثوه جيلاً بعد جيل، حتّى امتزج بدمائهم وقلوبهم وعقولهم،  
 ورسّت الشعائر الحسينية في نفوسهم وتطوّرت ونمت، ولا زالت في نماء مستمر.  
 ونهدف في هذا الكتاب إلى دراسة ظواهر الحزن الحسينية المعبرة عن أصداء  
 المصاب الأليم، سواء تلك التي سبقت الحادثة أو التي لحقتها، ومنهجنا في البحث

(١) بحار الأنوار (٢٤١/٩١).

استعراض النصوص الروائية ودراستها ومناقشة بعض الأفكار والشبه المثارة حول بعض الطقوس والشعائر الحسينية.

### وتقوم البحث واعتمد على محاور ثلاثة :

**أولاً:** النقل، والمقصود به الرواية والنص الخبري الوارد في الكتب المعتمدة.  
**ثانياً:** الإيمان بالغيب، إذ أنّ الأخبار في كثير من الأحيان تصف وقع المأساة في غير عالمنا الدنيوي، أو تأريخ الأنبياء السابقين عليهم السلام، فالإيمان بها متفرّع عن الإيمان بالنبوة والإمامة.

**ثالثاً:** الصنعة الفقهية، والأدوات المحكّمة في معالجة النصوص الشريفة، وهي الفيصل عند الاختلاف وورود الشبه، لا الأهواء والإعتبرات الشخصية، وبها يُمكن تأسيس المدارك الشرعية للشعائر الحسينية، والأساس هو قول الحجج الطاهرين عليهم السلام وأفعالهم وتقريراتهم.

وينبغي على الباحث في هذا المجال الإلتزام بالإستدلال المبرهن بحسب المناهج العلمية، وتحكيم النصوص الشرعية، والإسترشاد بقول العلماء الأمناء، دون تحميل أو تحكّم، والحاجة ملحة إلى التجرد والترفع عن التبعيات والبعد عن العواطف والتقليد الأعمى.

وكانت هذه المسائل محلّ الأخذ والردّ بين الفقهاء، ولم يتصدّق لنقدها وبحثها من بين علمائنا - بحسب التاريخ المتاح - أحدٌ في العهود القديمة، إلا أنّ هذا القرن الأخير كان حافلاً بالرموز الناقدة، ويرجع هذا إلى أسباب كثيرة ليس هذا محلّ ذكرها، إلا أنّها من أهمّها طروء بعض المراسم والطقوس على الشعائر الحسينية.

أمّا بالنسبة للشعائر الحسينية فقد تصدّى الإمام السيّد محسن الأمين رحمته لنقد بعض مظاهرها، وتصدّى عدّة من فقهاء عصره لتقويتها والردّ عليه، وكان رأيهم الغالب وحبّتهم الأقوى، وقد عرضنا آراءه وآراء غيره من غير إشارة إلى اسمه ليكون البحث أقرب إلى الموضوعية والتجرد وقمنا بالردّ عليها.

واعتمدتُ في تأسيس الشعائر الحسينية على كتب ثلاثة، كانت هي المرجع في البحوث الفقهيّة، وأظفتُ عليها الكثير ممّا لم يكن فيها، وهي.

١. الشعائر الحسينية في الميزان الفقهي: للفقير الآية الشيخ عبد الحسين الحلّي

رحمته، وعليه تعليقات مهمّة بقلم نزار الحائري.

٢. نجات الأمتة في إقامة العزاء على الحسين والأئمة عليهم السلام: للعلامة المعاصر

الحجّة السيّد محمد رضا الحسيني الحائري.

٣. نصرة المظلوم: للعلامة الآية الشيخ حسن المظفر رحمته.

فوقعت بحوثها في سياق بحوثنا، واستقصينا براهينها المهمّة، وأضفنا عليها الكثير من الأدلّة والفصول، والإنصاف أنّها كتبٌ قيّمة وتعتبر الأساس في هذه المباحث، وساقنا تعريفنا للشعائر الحسينية إلى الكثير من الشعائر الحسينية التي لم تُصنّف ولم تُعدّ من الشعائر، كالنياحة والإطعام والسقي والمشى للزيارة وغير ذلك.

وأمّا بالنسبة لمادّة المجالس الحسينية ورواية المقتل فإنّ أوّل من تصدّى - حسب

الظاهر - لنقدها بغرض إصلاحها هو خاتمة المحدثين الشيخ النوري رحمته وتبعه

العلامة الشهيد المطهري رحمته ولكنهما وإن أحسنا في بعض الموارد إلا أنّ التوفيق

لم يحالفهما في بعضها الآخر، ولنا مناقشات معهما في ذلك.

ولابدّ من عرض هذه المسائل ببراينها على القارئ الكريم ، وتأسيس دعاماتها بعيداً عن الذوق والهوى الشخصي وسوء النوايا ، وقد وضعتُ قلمي في هذا البحر الخضم وأنا أعرف أنني أخوض في ما لا يرضي الكثيرين ، إلاّ أنّه البحث والرأي القابل للتقد ، ولا يخامرني شكّ في أنّ العصمة لأهلها .

وأسأل الله العليّ القدير أن يعصمني من الزلل ويسدّني إلى الحقّ ، وألّا يجعله آخر العهد من خدمتي لساداتي ومواليّ أهل البيت عليهم السلام ، وأن يجعلني وجيهاً بمولاي الإمام الحسين عليه السلام في الدنيا والآخرة ، وأن ينفعني بحبّه وخدمته ، ويتمّ لي كلّ الخير بشرف الإنساب إليه ، ويقرّ به عيني ويكشف به كربتي وينفّس همّي ، إنّهُ أرحم الرّاحمين .

# المصيبة الراتبة

أصداء المقتل والشعار الحسيني



بإذن  
الأستاذ الشيخ محمد جعفر الباقلي